فتح وهران والمرسى الكبير في الكتابات التاريخية - لعام 1792م -

بقلم أ/ بلبروات بن عتو

تمهيـــــد:

كانت الجهة الغربية للمغرب الأوسط الممتدة من وادي الشلف شرقا إلى وادي ملوية غربا ثاني منطقة بالمغرب الإسلامي ، وأول منطقة بالمغرب الأوسط، تطأها أقدام الأسبان بدءا من الموقعين الساحليين الاستراتيجيين المتجاورين: المرسى الكبير سنة 1505، ووهران سنة 1509.

وانطلاقا منهما حقق الأسبان انتصارات عسكرية وسياسية ضد المقاومة المحلية العاجزة عن صد العدوان الأسباني والتي قادتها الدولة الزيانية المتضعضعة والتي كانت تعيش سنواتها الأخيرة بسبب الصراع على العرش بين أفراد العائلة المالكة.

لقد تمكن الأسبان من فرض حمايتهم على بلدة تنس الساحلية سنة 1509 ومستغانم سنة 1511 وتلمسان سنة 1512 وما والاها مثل قلعة بني راشد والقبائل العربية المنتشرة بين سيرات بضواحي وهران وملاتة بضواحي تلمسان.

ولا يعتبر هذا التوسع في الجهة الغربية للمغرب الأوسط إلا جزءا وخطوة أولى لاستراتيجية توسعية إسبانية تضع في أولى اهتماماتها مدن وموانئ المغرب الإسلامي من سواحل المغرب الأقصى إلى سواحل مصر قصد التحكم في مياه البحر الأبيض المتوسط، ومنع تقدم العثمانيين، والقضاء على القرصنة الإسلامية وملاحقة الموريسكيين الذين هاجروا إلى بلدان المغرب الإسلامي وقاموا رفقة المغاربة بشن هجومات بحرية ضد جزرها وسواحلها، وفي الوقت ذاته، يمكنها الاستيلاء على الموانئ، والتوغل نحو الداخل والتحكم في التجارة الإفريقية وبالتالي تحقيق حلم الإمبراطورية المسيحية الكاثوليكية التي تتمناها جميع فئات الشعب الأسباني وتباركها البابوية الرومانية .[1]

وإذا نجح العثمانيون في تحرير جميع النقاط التي احتلها الاسبان عبر ربوع الجزائر، إلا أنهم واجهوا صعوبات جمة في تحرير وهران والمرسى الكبير بشكل نهائي، إلى أن تسنى لهم ذلك عام 1792 على يد الباي محمد الكبير، باي الغرب الجزائري بين 1779-1797،[2]لتتحقق عندئذ وحدة التراب الجزائري للمرة الثانية[3] خلال العهد العثماني 1520-1830.

ولاحظنا في سياق بحثنا في موضوع " فتح وهران والمرسى الكبير عام 1792م على يد الباي محمد الكبير" أن المصادر الأجنبية قد تعمدت التقصير في معالجة الموضوع، سواء من قبل المؤرخين الأسبان الذين ألفوا تدوين انتصاراتهم فقط، أو من لدن المؤرخين والباحثين الفرنسيين الذين استغلوا العزوف الأسباني من جهة، ونقص التدوين الجزائري من جهة أخرى، وراحوا ينظرون للموضوع بطريقة تخدم أفكار دولتهم الاستعمارية.

وعليه يتسنى للباحث في هذا الموضوع أن يتحرى الحذر وهو يباشر دراسته للمصادر والكتابات التاريخية، فميولات أصحابها مختلفة ومذاهبهم ومشاربهم متنوعة، وهو ما سنحاول التنبيه إليه في هذه المداخلة.

1 –فتح وهران والمرسى الكبير في الكتابات العربية:

تناولت العديد من الكتابات التاريخية باللغة العربية، موضوع فتح وهران والمرسى الكبير سنة 1792 على يد الباي محمد الكبير، وهي مصنفة إلى مصادر بعضها لا يزال مخطوطا بخط مغربي، وبعضها الآخر تم طبعه ونشره.

–المصادر المخطوطة:

ويتصدرها مخطوط: **الرحلة القمرية في السيرة المحمدية**.الجزء الأول [4] ألفه ابن زرفة، أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن، ورغم أن صاحب هذا المخطوط كان كاتبا للباي محمد الكبير، ومادحا له، ومخلدا لمآثره، إلا أنه لا يخلو من حقائق تاريخية هامة، تتعلق بموضوع فتح وهران سنة 1792.

ويليه مخطوط: **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، لصاحبه أبو راس الناصري، محمد بن أحمد بن عبد القادر، وإذا كان مصنفا ضمن الأعمال الأدبية، فإنه قد قدم معلومات هامة ودقيقة عن فتح وهران. [5]

ثم مخطوط لمؤلف مجهول، بعنوان: **تاريخ الباي محمد الأكحل أو تاريخ استرداد وهران من الأسبان**،[6]ونعتقد أن صاحبه قد عاش خلال القرن

التاسع عشر لأنه يعتمد أساسا على ابن سحنون الراشدي، مؤلف كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني.

-المصادر المطبوعة:

يأتي على رأسها كتاب: **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، لإبن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد علي، الذي كان من مقربي الباي محمد الكبير، ورغم أن الكتاب عمل أدبي بالدرجة الأولى إذ يشرح قصيدة مادحة ومخلدة لسيرة الباي محمد الكبير إلا أن أهميته التاريخية، لا يمكن تجاوزها، وقد حققه الشيخ المهدي البوعبدلي ونشره سنة 1973.

ويليه كتابي: **طلوع سعد السعود ومخزنها الأسود** للآغا بن عودة المزاري، والذي حققه د/ يحي بوعزيز تحت عنوان آخر:"**طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**" ونشر سنة 1990 .

وأخيرا **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، لمحمد ابن يوسف الزياني، الذي قدمه وعلق عليه المهدي البوعبدلي ونشره سنة 1978.

لقد كانت هذه المصادر التي ترجمها المؤرخون الأوربيون ولخصوها ونشروها في مجلاتهم، أهم المصادر المعتمدة في تحليل موضوع فتح وهران والمرسى الكبير عام 1792، ورغم طابعها الأدبي وتبعثر أفكارها وعدم

احترامها للتسلسل الكرونولوجي للوقائع التاريخية إلا أنها كانت دقيقة في العديد من المواضع، وموضحة بعض الجوانب الغامضة في الموضوع.[7]

2-فتح وهران والمرسى الكبير 1792م، في الكتابات الإسبانية:

عندما ندرس ما حققه الأسبان من انتصارات في الجزائر الحديثة نجد العديد من المؤلفات والتقارير التي لا تخلو من المبالغة والتحيز، مثلما نسجله عند احتلالهم للمواقع الساحلية الجزائرية في السنوات الأولى من القرن السادس عشر.

ولما يتعلق الأمر بهزائمهم وانتكاساتهم، نلاحظ عزوفا وصمتا إسبانيا فقلما نجد مؤلفا إسبانيا يقف على الهزيمة الأسبانية، وتقاريرهم التي تكتفي بوصف الحملات العسكرية، تعزو الانتكاسة إلى عوامل طبيعية كالعواصف البحرية أو هيجان البحر وغيرها.

أما في موضوعنا هذا، فقد لا نعثر على مذكرات أو تقارير مفصلة أو مؤلف تاريخي، يصف ويتابع تطورات الصراع بين جيش الباي محمد الكبير والجيش الأسباني المحتل وهران والمرسى الكبير، من بدايته إلى نهايته (1780-1791)، إذ لا نجد في الكتابات الأسبانية سوى عدد قليل من المراسلات الأسبانية الجزائرية التي حاولت تسليط الضوء على بعض جوانب الصراع الأسباني الجزائري حول وهران والمرسى الكبير، وكذا مواقف الباي محمد الكبير تجاه الأسبان قبل وبعد الفتح، لكن تبقى مراسلات مدعمة لدراسة الحدث التاريخي وتحتاج إلى وثائق ومصادر تبرز مضامينها بوضوح وتضعها بدقة في سياقها التاريخي.

وأهم وثيقة أسبانية قدمت دعما لدراستنا لهذا الموضوع، هو التقرير الذي أعده حاكم وهران الكونت دي كامب هرموزا Conte de cumbre hermosa في 02 نوفمبر 1790 -عقب الزلزال المدمر الذي ضرب مدينة وهران[8]- وجهه لملكه بمدريد كارلوس الرابع Carlos IV وأشعره فيه بـــ:

-خراب معظم الهياكل والمنشآت الدفاعية لمدينة وهران.

-هلاك الحاكم العام وكامل أفراد عائلته.

-وصول النجدات الاسبانية المختلفة.

-هجمات باي معسكر للسيطرة على المدينة.

-تنظيم الفرق العسكرية الاسبانية للدفاع عن المدينة.

بعد ذلك يقع صمتا رهيبا على تطورات الصراع حول وهران والمرسى الكبير إلى أن وقع الرحيل الإسباني والفتح الجزائري للثغرين.

وقد ترجمها إلى اللغة الفرنسية الدكتور نور الدين مالكي ونشرها على الصيغة التالية:

Malki, nordine. « Le tremblement de terre d'Oran d'octobre 1790 et les tentatives du bey de mascara pour la libération de cette ville d'après des archives nationales historiques de Madrid » in actes de séminaire international sur les sources espagnols de l'histoire Algérienne, Oran, 20-22 avril 1981.

ويليها مراسلات إسبانية ترجمها الدكتور يحي بوعزيز بالتعاون مع الدكتور تركي حساين نشرت في كتاب: **المراسلات الجزائرية الأسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1780– 1798**، وتكمن أهمية هذه المراسلات

في تسليطها الضوء على بعض جوانب الصراع الأسباني الجزائري حول وهران والمرسى الكبير .

3-فتح وهران والمرسى الكبير 1792 في الكتابات الفرنسية:

استغل المؤرخون والباحثون الفرنسيون الصمت الإسباني حول فتح وهران والمرسى الكبير من جهة، ونقص المادة المعرفية في المصادر العربية من جهة أخرى، وراحوا ينظرون للموضوع بطريقة تخدم أفكار دولتهم الاستعمارية، ونشرها في مجلاتهم، وأبرز هؤلاء نجد:

-Fey, henri léon. Histoire d'Oran avant, pendant et après l'occupation Espagnole. Oran ,1858.

-Lespès, René. Oran. Etude de géographie et d'histoire urbaine. Collection du centenaire de l'Algérie 1830-1930.paris.

-De Grammont, h. Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830. paris, 1887.

-Lapène, M. Tableau historique de la province d'Oran 1791-1831.metz, 1842.

-Eugène, cruck. Oran et les témoins de son passé.

-Kehl, camille. Oran et l'Oranie avant l'occupation française. Oran , 1942.

-Alazard, j et autres. **Histoire et Historiens de l'Algérie**. collection du centenaire de l' Algérie 1830-1930, paris.

ولقد اتخذت كتابات هؤلاء حول الموضوع منحى واحدا حيث أفرد كل مؤرخ صفحات حول الصراع بين جيش الاسبان وجيش الباي محمد الكبير على الطريقة التالية:

-التعريف المقتضب بشخصية الباي محمد الكبير.

-زلزال وهران 1790 وتصعيد القتال.

وبالتالي نلاحظ أن الكتابات الفرنسية تجاهلت فترة الكفاح الجزائري العثماني بين 1780-1790 رغم ترجمتهم للمصادر العربية، ولعل هدفهم من وراء ذلك، هو ترويج فكرة أن الانسحاب الاسباني من وهران والمرسى الكبير كان بسبب زلزال أكتوبر 1790 العنيف، ولولاه لاستمر الوجود الاسباني بالثغرين الجزائريين، وبهذا الطرح نجد أنفسنا أمام محاولة لتغييب دور جيش الباي محمد الكبير في تحرير وهران والمرسى الكبير، وانتقاص مفضوح لسيادة وهيبة الدولة الجزائرية الحديثة.

الخاتمـــــــة:

وبناء على ما تقدم تجدر الإشارة إلى أن موضوع تحرير وهران والمرسى الكبير عام 1792، من الاحتلال الاسباني، يكتسي أهمية ذات أبعاد وطنية، تتعلق بإصرار المؤسسة العسكرية العثمانية بالجزائر وكذا حلفائها المحليين من القبائل العربية والبربرية، على تحرير آخر شبر من أرض الجزائر من السيطرة الأسبانية وتحقيق الوحدة الترابية التي تترجم سيادة الدولة على أراضيها، لذا يتوجب على الجزائريين الباحثين في التاريخ، استغلال هذا الحدث وتوظيفه ضمن سياسة إعداد الفرد الصالح المحب والمدافع عن بلاده. ولبلوغ ذلك ينبغي كتابة الموضوع بموضوعية علمية من خلال دراسة جميع النصوص التاريخية المحلية والأجنبية، ومن ثم تمييع الأطروحات الاستعمارية التي حاول المؤرخون الفرنسيون تمريرها للجزائريين. كما نؤكد من جهة أخرى على أهمية تحقيق المخطوطات العربية ونشرها قصد تسهيل العملية البحثية للدارس.

الإحالات:

1- عبد الجليل التميمي. "الخلفية الدينية للصراع الأسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر. **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 10-11، تونس، 1978، ص ص 5-16.

2- الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بالكبير، حكم الغرب الجزائري من 20 جويلية 1779 إلى 15 نوفمبر 1797- تاريخ وفاته- واشتهر بجهاده ضد الأسبان المتمركزين بوهران والمرسى الكبير وبإصلاحاته الاقتصادية والثقافية على مستوى بايليك الغرب.

3-كان الفتح الأول لوهران والمرسى الكبير سنة 1708 على يد الوزير حسن أوزن وباي الغرب مصطفى بوشلاغم في عهد الداي محمد بكداش.

4-حقق الجزء الأول للرحلة القمرية في السيرة المحمدية الدكتور حساني مختار من جامعة الجزائر وهو موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 3322. أما الجزء الثاني فهو مفقود إلى يومنا هذا.

5- مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار مودع بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 3327.

6-هذا المخطوط الذي نجهل مؤلفه، موجود بالمكتبة الوطنية الفرنسية تحت رقم 5022 وبحوزتنا نسخة مصورة في ميكروفيلم.

7-للإحاطة بموضوع فتح وهران والمرسى الكبير عام 1792 أنظر: بلبروات بن عتو. الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 2002.

8-شهدت وهران في 10-11 أكتوبر 1790 زلزالا عنيفا خلف خسائر مادية وبشرية معتبرة وكان وقتها جيش الباي محمد الكبير محاصرا للمدينة.